الإخلاص من الإحسان

شهر رمضان ساحة تدريب على الإخلاص؛ ذلك السر الذي به قوام الأعمال كلها على مدار حياة الإنسان

فاعبد اللّه مخلصا له الدين:

قال تعالى: (**فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ . أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ**) [الزمر: 2-3]

أي أخلص للّه تعالى جميع دينك، من الشرائع الظاهرة والشرائع الباطنة: الإسلام والإيمان والإحسان، بأن تفرد اللّه وحده بها، وتقصد به وجهه، لا غير ذلك من المقاصد.

(ألا للّه الدينُ الخالصُ) هذا تقرير للأمر بالإخلاص، وبيان أنه تعالى كما أن له الكمال كله، وله التفضل على عباده من جميع الوجوه، فكذلك له الدين الخالص الصافي من جميع الشوائب، فهو الدين الذي ارتضاه لنفسه، وارتضاه لصفوة خلقه وأمرهم به، لأنه متضمن للتألّه للّه في حبه وخوفه ورجائه، وللإنابة إليه في عبوديته، والإنابة إليه في تحصيل مطالب عباده. وذلك الذي يُصلح القلوب ويزكيها ويطهرها.] [تيسير الكريم الرحمن]

وقال تعالى: (**قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ**) [الأنعام:163-162]

[قل: إن صلاتي، ونسكي أي عبادتي. (والنسك: العبادة، أو الذبح، أو الحج). ومحياي ومماتي، وما أتيته فى حياتي، وأموت عليه من الإيمان والعمل الصالح للّه رب العالمين خالصة لوجهه؛ لا شريك له فى شيء من ذلك. وبذلك الإخلاص أمرت، وأنا أول المسلمين؛ لأن إسلام كل نبى متقدم على إسلام أمته.] [النسفي]

([قل إن صلاتي ونسكي) أي: ذبحي، وذلك لشرف هاتين العبادتين وفضلهما، ودلالتهما على محبة اللّه تعالى، وإخلاص الدين له، والتقرب إليه بالقلب واللسان، والجوارح، وبالذبح الذي هو بذل ما تحبه النفس من المال، لما هو أحب إليها؛ وهو اللّه تعالى. ومَن أخلص في صلاته ونسكه، استلزم ذلك إخلاصه للّه في سائر أعماله وأقواله.

(ومحياي ومماتي) أي: ما آتيه في حياتي، وما يجريه اللّه عليّ، وما يُقدِّر عليّ في مماتي.. الجميع (للّه رب العالمين). (لا شريك له) في العبادة، كما أنه ليس له شريك في الملك والتدبير. ليس هذا الإخلاص للّه ابتداءً مِني، وبدءًا أتيته من تلقاء نفسي. بل (وبذلك أمرت) أمرًا حتمًا؛ لا أخرج من التبعة إلا بامتثاله (وأنا أول المسلمين) من هذه الأمة] [تيسير الكريم الرحمن]

فـ[الإخلاص هو "إكسير" الأعمال، الذي إذا وضع على أي عمل ولو كان من المباحات والعادات حوله إلى عبادة وقربة للّه تعالى، وفي الحديث أن النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم قال: «**إنك لن تُنفق نفقةً تبتغي بها وجهَ الله إلا أجرتَ عليها حتى ما تجعلُ في فمِ امرأتك**». [رواه البخاري]

وقال تعالى في شأن الذين يجاهدون في سبيله: (**ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ . وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**) [التوبة: 121-120]

فجعل جوعهم وعطشهم ومشيهم ونفقتهم مما يُسجل لهم في رصيد حسناتهم عند اللّه عز وجل، مادام ذلك في سبيل اللّه، ولن تكون هذه الأشياء في سبيل اللّه إلا إذا أداها المسلم لتكون كلمة اللّه هي العليا.

وأكثر من ذلك ما جاء في مثوبة مَن ارتبط فرسًا ليجاهد عليها في سبيل اللّه. ففي الصحيحين عن أبي هريرة أن النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم قال: «**مَن احتبسَ فرسًا في سبيل الله، إيمانًا بالله، وتصديقًا بوعده، فإنَّ شَبَعَهُ وريَّهُ، ورَوْثَهُ وبولَهُ في ميزانه يومَ القيامة**» يعني: حسنات!

وذلك أن الوسائل والآلات بحسب المقاصد والغايات، فكل ما يُعين على الجهاد في سبيل اللّه وإعلاء كلمته، ونصرة دعوته، من عدة وآلة وتدريب وكسب خبرة ومهارة، فهو قربة إلى اللّه، فبها الأجر والثواب.] [النية والإخلاص للقرضاوي]

فـ[البواعث التي تسوق المرء إلى العمل، وتدفعه إلى إجادته، وتغريه بتحمل التعب فيه أو بذل الكثير من أجله، كثيرة متباينة.

منها القريب الذي يكاد يُرَى مع العمل، ومنها الغامض الذي يختفي في أعماق النفس، وربما لا يدركه العامل المتأثر به؛ مع أنه سر اندفاعه في الحقيقة إلى فِعْل ما فَعَل، أو تَرْك ما تَرَك!

والغرائز البشرية المعروفة هي قواعد السلوك العام، ومن اليسير أن ترى في حركات رجل أمامك حبه لنفسه، أو طلبه للسلامة، أو حرصه على المال، أو ميله للفجور، أو تطلعه للظهور..والإسلام يرقب بعناية فائقة ما يقارن أعمال الناس من نيات، وما يلابسها من عواطف وانفعالات. وقيمة العمل عنده ترجع -قبل كل شيء- إلى طبيعة البواعث التي تمخضت عنه.

فقد يعطي الإنسان هبة جزيلة لأنه يريد بصنائع المعروف أنْ يستميل إليه القلوب، وقد يعطيها لأنه يريد أنْ يَجزي خيرًا مَن سبق فأسدى إليه خيرًا.. وكلا المسلكين كرم دفع إليه شعور المرء بنفسه سلبًا أو إيجابًا -كما يُعبِّر علماء النفس- ولكن الإسلام لا يعتد بالصدقة إلا إذا خلصت من شوائب النفس، وتمخضت للّه وحده على ما وصف القرآن الكريم: (**إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا**) [الإنسان: 9]] [خلق المسلم]

[(ويطعمون الطعام على حبه) أي حب الطعام؛ مع الاشتهاء والحاجة إليه. أو على حب اللّه؛ مسكينًا فقيرًا عاجزًا عن الاكتساب، ويتيمًا صغيرًا لا أب له، وأسيرًا مأسورًا مملوكًا أو غيره. ثم عللوا إطعامهم فقالوا: إنما نطعمكم لوجه اللّه؛ أي لطلب ثوابه. أو هو بيان من اللّه عز وجل عما في ضمائرهم؛ لأن اللّه تعالى علمه منهم فأثنى عليهم وإن لم يقولوا شيئًا.

(لا نريد منكم جزاء..) هدية على ذلك، (ولا شكورًا..) ثناء.. (إنا نخاف من ربنا..) إنا لا نريد منكم المكافأة لخوف عقاب اللّه على طلب المكافأة بالصدقة. أو إنا نخاف من ربنا فنتصدق لوجهه حتى نأمن من ذلك الخوف يومًا عبوسًا قمطريرًا.] [تفسير النسفي]

([إنما نطعمكم لوجه اللّه) على إرادة القول بلسان الحال أو المقال؛ إزاحة لتوهم المن، وتوقع المكافأة المُنغِّصة للأجر. وعن عائشة ل: أنها كانت تبعث بالصدقة إلى أهل بيت، ثم تسأل المبعوث: ما قالوا؟ فإن ذكر دعاء دعت لهم بمثله؛ ليبقى ثواب الصدقة لها خالصًا عند اللّه.

(لا نريد منكم جزاء ولا شكورا) أي شكرًا. (إنا نخاف من ربنا) فلذلك نحسن إليكم. أو لا نطلب المكافأة منكم. (يومًا) عذاب يوم. (عبوسًا) تعبس فيه الوجوه. أو يشبه الأسد العبوس في ضراوته. (قمطريرا) شديد العبوس، كالذي يجمع ما بين عينيه.] [تفسير البيضاوي]

فالعمل الخالص هو الذي لا باعث عليه إلا طلب القرب من اللّه تعالى.

قال الفضيل في قوله تعالى: (**لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا**) [الملك: 2] قال: أخلصه وأصوبه. وقال: إن العمل إذا كان خالصًا، ولم يكن صوابًا لم يُقبَل، وإذا كان صوابًا، ولم يكن خالصًا لم يُقبَل؛ حتى يكون خالصًا وصوابًا. قال: والخالص إذا كان للّه عز وجل، والصواب إذا كان على السُّنَّة.

صومُ النساء

النساء مدارس تربية وإصلاح ، وقواعد البناء والنهوض ، ومعاهد صناعة الرجال والأبطال .

الأمُّ مدرسةٌ إذا أعددتَها أعددتَ شعباً طيّب الأعراقِ

الأم روضٌ إن تعاهده الفتى بالريّ أورق أيّما إيراقِ

إن الأمّ المسلمة مركز التربية والرعاية والهداية ، فهي نصف المجتمع ، إذ بصلاحها صلاح جيل وأمّة .

إن شريعتنا الإسلامية الغرّاء أولَت المرأة المسلمة عناية فائقة، وأكسبَتْها نوراً وحبوراً وذكراً وشرفاً لم تنلْه امرأة في سائر الملل والنِّحَل التي تقيأها وأنشأها حُقراء البشر وزنماء الحرية والعدل والمساواة .

إن الأمم الكافرة اعتبرت المرأة «بليّة عظيمة» هي أحط من كل شيء وضيع في أذهانهم ، إنها عارٌ وشنار ، إنها لعنة وبلاء ، إنها متاع موروث ، إنها رجس الشيطان .

وقد عقد الفرنسيون في حقبة من الدهر مؤتمراً للبحث : هل المرأة تُعدّ إنساناً أم غير إنسان ؟ وأخيراً توصّلوا أنها إنسان خُلقت لخدمة الرجل فحسب .

ولكم أن تتصوّروا إلى أي حدّ بلغَت عقول هؤلاء وامتهانهم للمرأة المنكوبة ، فجاءت هذه الشريعة السمحة العادلة فرفعَت من المرأة المسكينة سوط الظلم ، وطهّرتها من سوء الاعتقاد ، وحفظتها وصانتها ، وأنزلَتْها منازل الكرماء الفُضلاء ، وأقامت لها ميزان حقوقها في حد طاقتها وخِلقتها وعفافها وطهرها ، فكان مِن هذا الجنس الضعيف اللطيف عالِمات حافظات ، وعابدات صالحات ، وسيدات مباركات .

أيها الصائمون :

النساء شقائق الرجال كما صح بذلك الحديث عن النبي صلى اللّه عليه وسلم فلهنّ ما للرجال ، وعليهنّ ما على الرجال دون استثناء إلا ما خصّه الدليل ، لذا يجب عليهنّ الصيام ، ويُستحب للنساء المسلمات في رمضان الاجتهاد في الطاعة والمسارعة إلى الخير والبرّ من صلاة وذكر وتلاوة وصدقة وبذل للمعروف وكل عمل مبرور .

وليعلمنّ الأخوات الصالحات أن السالفات من نساء الصحابة والتابعين كنّ أهل جدّ وعمل في هذه المواسم المباركة ، فقبيحٌ بالمرأة المسلمة أن تضيع وقتها ـ لاسيما في رمضان ـ في الزيارات الكثيرة ونزول الأسواق وإصلاح المنزل وتجميله إلى درجة مفرطة.

وإني لأنصح إخواني الرجال من الآباء والأولياء أن يتّقوا اللّه تعالى في نسائهم وبناتهم ، ولا يكونوا سبباً في حرمانهنّ من اغتنام مواسم الرحمة والخير كرمضان ، فالمرأة المسلمة ليست وظيفتها صنعة الطعام وكنس المنزل وتجميله فحسب ، بل إنها أجلّ من ذلك كله وأسمى ، وما الطعام والنظافة إلا جزء يسير من عملها ، وما يُرتقب ويُراد منها أعظم وأعظم .

أيها الصائمون :

كيف تنتظرون من النساء المسلمات حسن التربية وزكي الإصلاح وصناعة الرجال ، وقد حمّلتموهنّ كثير الأشغال وقليلها ، وثقيلها وخفيفها ، حتى قراءة القرآن أصبحت المرأة المسلمة مع أعباء المنزل ومشكلاته ، لا تتلوه إلا في أحايين متباعدة ، فيمر الشهر والشهران لا تتلو المرأة القرآن .

ثبت في سنن الترمذي وقال : حسن صحيح عن عمرو بن الأحوص الجُشَميّ قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : (ألا واستوصوا بالنساء خيراً فإنهنّ عَوَانٍ عندكم) ( ) يعني أسيرات .

إن من تقوى اللّه تعالى في المرأة المسلمة تعليمها وتنشئتها التنشئة الحسنة ، بتقريب سبل الخير لها، وتجنيبها موارد الفتن والغواية التي يدبرها أعداء الإسلام ، الذين يريدون من المرأة مماثلة الرجل في كل صغيرة وكبيرة من مجالات الحياة ، فتهتك المرأة حياءها وتخلع حجابها ، وتدنّس طهرها وعفتها وتقتل أبناءها ، وإنا لنحمد اللّه عز وجل بأن دعاواهم تهاوت وانسحقت تحت أعاصير غيوري الرجال والنساء من أهل الإسلام ، واللّه ما مثلنا ومثلهم إلا كمن قال :

كناطحٍ صخرةً يوماً ليوهنهَا فلم يَضرها وأوهى قرنَه الوعِلُ

«اللهمّ إنا ندرأ بك في نحورهم ، ونعوذ بك مِن شرورهم».

دعاء اليوم العاشر

اللهم إنا نعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك ، وبك منك لا نحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك ، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم على آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد . والحمد لله رب العالمين .

حديث شريف

عن أبي هريرة ـ رضي اللّه عنه ـ قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم : ((من يسر على معسر يسر اللّه عليه في الدنيا والآخرة)) . [رواه مسلم]

الحث على السحور

قال (صلى الله عليه وآله وسلم) : «تسحروا فإن في السحور بركة» (مسلم: 1095).

وقته : عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : «تسحرنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم قام إلى الصلاة، فقلت: كم كان بين الأذان والسحور؟ قال: قدر خمسين آية»

رواه البخاري

مكاشفة: رمضان وشباب الشوارع

أخي الصائم ..

إن النعم كلما ازدادت قيمة في نفوسنا كلما ازددنا حرصاً عليها نشفق عليها أن تنزع من أيدينا أو تنال منها مصيبة أو جائحة لا قدر اللّه .

هذا المجتمع الآمن الذي ترفرف على ربوعه راية التوحيد هو من أعظم المكاسب التي يجب علينا أن نحافظ عليها ولا نسمح لأحد أن يخدش جمالها وإن وجود بعض الظواهر الاجتماعية المؤثرة على صبغته الهادئة والوادعة لتمثل تشويهاً حقيقياً كأنه بثور متقيحة في وجه حسناء وهي ظواهر تمثل إفرازاً سيئاً لتلاقح المجتمعات المفتوح دون حدود عبر الفضاء والشبكة العنكبوتية وتقليداً محضاً لما يشاهد هنا وهناك .

صورة محزنة شاهدتها في شهر رمضان بالقرب من منزلي حيث يحلو السهر الشبابي الطائش ..

أحد كبار السن في حينا على عتبات الثمانين من عمره خرج يريد قضاء حاجة له من أحد المحلات التجارية القريبة من منزله وفي الطريق رأى جمهرة من الشباب قد اصطفت على جنبات الطريق لاتألو جهداً في إثارة الفوضى تتفنن في إزعاج الحي والمارة بوسائل لا تنقصها الهمجية تخجل العائلات المحترمة حين تضطر للخروج لحاجتها , وتلجئ السيارات العابرة للحوادث المرورية وترعب المارة , وتعرض عشرات الأطفال المغرر بهم للخطر الداهم كل ذلك من أجل استعراض سمج للمهارات الخارقة التي يتمتع بها أحد الشباب المتهور وهو يرقص سيارته أو يدور بها في غطرسة , والتي قد تنتهي بانقلاب السيارة , أو الاصطدام في سيارات , أو ربما الدخول في أحد جدران المنازل القريبة كما حدث ذلك ورأيته .

لن أنسى شيخنا الوقور وهو يراقب هذه المهزلة مرغماً غير مختار , لأنه يقف محتاراً على حافة الشارع ينتظر الفرج ولو للحظات ليقطع الشارع إلى مكان حاجته , وفجأة انزلقت سيارة مجنونة إلى موقع الشيخ لترديه قتيلاً في لحظات , ليكون واحداً من ضحايا التجمعات الشبابية المشبوهة في الطرق العامة .

وإذا كان سرد الحادثة كافياً لتكون عبرة للشباب , فإن الكلمة التي يجب أن تقال يجب أن توجه لأولياء الأمور , الذي منحوا هذه السيارات لمن لا يستحقها , ومن لا يعرف كيف ينتفع بها , ولا يقدر مدى خطرها ويبقون هم غافلين عن فلذات أكبادهم لاهين عنهم بشؤن الحياة التي لا تنتهي , حتى إذا وقعت الكارثة واستدعي أحدهم إلى دائرة الأمن بدأ يتلفت يميناً وشمالاً يبحث عن مخرج لولده من ورطته ويذهب أمثال هذا الشيخ القتيل يشكو إلى ربه من قتله ومن تسبب في قتله .

أخي الصائم ..

أليس أولادنا من أعظم الأمانات عندنا ؟ أو ليسوا مسؤولين أمام اللّه عن شبابهم فيم يبلونه , فلماذا.. لماذا نرخصهم فنسلمهم لرفقاء السوء في مثل هذه التجمعات الموبوءة , التي لا تخلو من مواعيد مشبوهة ومد الجسور في علاقات تبدأ في الشارع , وتنتهي في مغارة من مغارات الفساد وعصابة من عصابات المخدرات , لا قدر اللّه ..

ومهما يكن من شيء فإن هذه التجمعات لا تمثل الوجه النقي الطاهر لشهر رمضان المبارك , الذي ينبغي أن نصطبغ به ونتمسى وقد اغتسلنا من أدراننا وخطايانا .

أخي الصائم .. ترفق بابنك , وانتشله من هذه الوهدة التي لا يدري قاع هاويتها حين يطل عليها بعين المتعة فيراها بركة زرقاء توج بلآلي الضوء المتوهج , فتغريه بالعومة التي قد لا ينجو من فكيها .

أعتذر لك أخي الصائم إن كنت قد جرحت مشاعرك بمدية الحقيقة , ولكن عذري أنني أحبك , وأحب لك الخير الذي أحبه لنفسي .

حديث في التراويح

إنّ صلاة التراويح صلاة عظيم مباركة ، سنّها رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وأحيتها الأمة من بعده ، وهي من قيام الليل ، وقيام الليل أفضل صلاة بعد الفريضة كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة( ) رضي اللّه عنه وهو دأب الصالحين وسرّ المتقين ، الذين تجافت جُنوبُهم عن المضاجع يدعون اللّه تعالى خوفاً وطمعاً ، يرجون رحمته ويخافون عذابه .

هل سمعتم بفضل قيام الليل وعِظَم أهله وما ورد لهم من أجور عظيمة وهبات جسيمة ، استمعوا إلى ما يقول اللّه تعالى في أهله تعظيماً لهم وتنويهاً بشأنهم : [**كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**] [الذاريات : 17 - 18] .

بقيام الليل تطهر قلوبنا وتغمرنا السعادة وتكسونا البهجة .

عن أبي أمامةَ الباهلي ـ رضي اللّه عنه ـ عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال : (**عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم وقُربة إلى ربِّكم ومكفرةٌ للسيئات ومَنهاةٌ عن الإثم**) رواه الترمذي وابن خزيمة( ) .

لعلّك يا قائم الليل تحظى بحلاوة لا يجدها غيرك فتقوم ليلة فتصيب رحمةً أو تنال بركةً ، أو توافق ساعة مباركة ، فيُجيب اللّه دعاءك .

عن جابر ـ رضي اللّه عنه ـ قال : سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول : (**إنّ في الليلِ لَساعة لا يوافقها رجل مسلم يسأل الله خيراً من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه الله إيّاه وذلك كلّ ليلة**) ( ) رواه مسلم .

قال النووي رحمه اللّه : «فيه إثبات ساعة الإجابة في كل ليلة ويتضمن الحثّ على الدعاء في جميع ساعات الليل رجاء مصادفتها»( ) .

أيها الصائمون :

إنكم في موسم عظيم مبارك ، يتأكد فيه الإيثار من الطاعات والتزوّد من القرُبات لا سيما قيام الليل ، وهو يصدق بصلاة التراويح مع المسلمين ، وقد وردَت بخصوصه أحاديث شريفة منها :

الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة رضي اللّه عنه أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال : (**مَنْ قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدّمَ منْ ذنبه**) ( ) .

وعند أصحاب السنن : «مَن قام ليلة مع الإمام حتى ينصرفَ كُتب له قيام ليلة»( ) .

أيها الأخيار :

إن سروركم وبهاءكم في قيام الليل في صلاة التراويح ، فحافظوا عليها ولا تضيعوها ، وقوموا بواجباتها ولا تهملوها ، واطمئنّوا فيها ولا تنقروها .

كم هو جميلٌ أن دُؤدّي التراويح جماعة خاشعين في أدائها ونتدبّر كتاب ربنا ونبكي عند سماعه [**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**] [الأنفال : 2] .

أيها الأخيار :

ما أعظم مواظبتكم على التراويح وخشوعكم فيها وتسابقكم إليها، إن لكم بها مغفرة ورحمة وحمداً وذكراً وشرفاً وأجراً .

إن صلاة التراويح مِن خير ما يعتني به المصلّون في هذا الشهر الكريم ، وإننا إذ نؤكد العناية بها ننبّه على أمور تتعلّق بها :

أولاً : عددها : والناس في عددها مختلفون اختلافاً كثيراً ، ما بين متشدد ومتساهل ، والواجب عند الاختلاف والتنازع الرجوع إلى الكتاب والسنة ، فهما الحكم على كل الآراء والاجتهادات قال تعالى : [**فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً**] [النساء : 59]، وقال تعالى: [**وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ**] [الشورى : 10] .

فهل ورد في الكتابِ أوَ السّنة ما فيه صراحة تحديد التراويح أو على سبيل الإشارة ؟

نقول : ثبت في المتفق عليه من حديث عائشة وأخرجه البخاري في كتاب «التهجّد» باب قيام النبي صلى اللّه عليه وسلم بالليل في رمضان وغيره من طريق أبي سلمة بن عبد الرحمن أنه سأل عائشة رضي اللّه عنها : كيف كانت صلاة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في رمضان ؟ فقال : (ما كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يزيد في رمضان ولا في غيره على إحدى عشرة ركعة) ( ) ، لكنها كما وصفتها عائشة : (يصلي أربعاً فلا تسأل عن حُسنهنّ وطولهنّ ، ثم يصلي أربعاً فلا تسأل عن حُسنهنّ وطولهنّ ، ثم يصلي ثلاثاً) .

فمن تيسرّ له القيام بما ثبت عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وبهذه الصفة فلا ريب أنه خير هدي وأحسنه وأكمله ، ولا ينبغي له العدول عن ذلك ، وهذا مسلك بعض الأئمة كمالك بن أنس ـ رحمه اللّه ـ كما في إحدى الروايات عنه ، فقد قال : «الذي جمعَ عليه الناسَ عمرُ بن الخطاب أحبّ إليّ ، وهو إحدى عشرة ركعة ، وهي صلاة الرسول صلى اللّه عليه وسلم ، قيل له : إحدى عشرة ركعة بالوتر ؟ قال : نعم ، وثلاث عشرةَ قريب» قال : «ولا أدري من أين أحدث هذا الركوع الكثير» ، وهذا ذكره السيوطي في رسالته في التراويح ، وقد وافق مالكاً على هذا الرأي أبو بكر بن العربي ـ رحمه اللّه ـ كما في شرحه لسنن الترمذي حيث قال : «والصحيح أن يصلي إحدى عشرة ركعة صلاة النبي صلى اللّه عليه وسلم وقيامه ، فأما غير ذلك من الأعداد فلا أصل له و لا حدّ فيه « ، وعلى هذا جرى عمل الصحابة بعد وفاة النبي صلى اللّه عليه وسلم في بعض الأحوال فقد روى مالك والبيهقيّ بسند صحيح عن السائب بن يزيد أنه قال : «أمرّ عمرُ بن الخطاب أبيّ بن كعب وتميماً الدّاري أن يقوما بالناس بإحدى عشرة ركعة ، قال : وقد كان القارئ يقرأ بالمئين حتى كنا نعتمد على العصى عن طول القيام ، وما كنا ننصر إلا في فروع الفجر»( ) ، وفروع الفجر المراد به أوائله .

ورأى أكثر العلماء أن التراويح تطوّع مطلق ، وليس لها عدد محدود ، وأجازوا الزيادة على حديث عائشة ومآخذهم في ذلك مختلفة ، وعمل الصحابة ـ رضى اللّه عنهم ـ ليس فيه التزام عدد معيّن ، فقد صح عنهم أنهم صلّوا إحدى عشرة ركعة ، وإحدى وعشرين ، وثلاثاً وعشرين ، فقد يعمد بعضهم إلى تطويل الصلاة وتحسينها ويقلل الركعات فيجعلها إحدى عشرة كصلاة النبي صلى اللّه عليه وسلم وتارةً يزيدون في الركعات فيصلون إحدى وعشرين أو ثلاثاً وعشرين ويخففون القيام ، وزيادتهم تكون إدراكاً لبعض الفضيلة بسبب ما جرى من تخفيف القيام ، وصنيعهم هذا راجع إلى مراعاة أحوال الناس من ضعف وقوة ونشاط ، وهذا نهجٌ حسن ، يُفعل عند المصلحة والحاجة ، وأما التزام عدد معين وتقييد الناس به وادّعاء فضله والإجماع عليه فذلك إهمال لبعض النصوص ومجانبة لهدى السلّف ، قال الحافظ ابن حجر رحمه اللّه : «والجمع بين هذه الروايات ممكن باختلاف الأحوال ، ويحتمل أن ذلك الاختلاف بحسب تطويل القراءة وتخفيفها ، فحيث يطيل القراءة تقل الركعات وبالعكس ، وبذلك جزم الداوُديّ وغيره ، والاختلاف فيما زاد عن العشرين راجع إلى الاختلاف في الوتر ، وكأنه كان تارةً يوتر بواحدة ، وتارةً بثلاث»( ) ، وإلى نحو هذا أشار ابن تيمية رحمه اللّه في مجموع الفتاوى( ) ، وهذا هو التحقيق والفقه في المسألة وبه تأتلف النصوص ، واللّه تعالى أعلم .

ثانياً : صفة صلاة التراويح : وصفتها كسائر الصلوات على المصلّين أن يأتوا بأركانها وواجباتها وسننها من أدعية وأذكار مع الطمأنينة والخشوع والتّؤدّة وعدم العجلة في ذلك كله ، وأما ما وقع في هذه الأعصار من تخفيف كثير من الأئمّة لصلاة التراويح بحجة ضعف الناس وأنها سنّة ، حتى إن صلاتهم لتبدو هالكة بعيدة عن الهدي النبوي وطريقة السلف الصالح رضي اللّه عنهم ، فذاك كله خلاف الصواب والسنّة ،

ونحن إذ نؤكد وندعو إلى العناية بصلاة التراويح وعدم التلاعب بها ، لا نفرض على الناس أن يصلوا بالمئين ويحققوا كمال الصلاة الشرعية المحبوبة ، بل نقول : يُعتّدل في ذلك ويُحاول طلب الفضيلة والإحسان فيها ، فإن رمضان موسم عظيم وهو أيام معدودات وتنقضي انقضاءً سريعاً ، فلماذا لا نتوخّى الهداية والرحمة والسنّة فيه ، ثم إذا اضطر الإمام للتخفيف بعض الأحيان بناءً على ضعف الناس وعدم صبرهم وتقديرهم لهذا الشهر العظيم ، فلا بأس حينئذ أن يخفف الصلاة ويراعي ضعيفهم وسقيهم ، مع مراعاة الأركان والواجبات والمحافظة على مقصود الصلاة ، واللّه الموفق والهادي إلى سواء السبيل .

ثالثاً : هناك فئات من لمين لا يشهدون التراويح في رمضان بزعم أنها سنّة وليست واجبة ، فمن يقوم بها بشيء عظيم ولا يرتقي مرتقا عاليا ، ولا ندري هل نسيَ هؤلاء فضل قيام الليل وثوابه وما أعدّ لأهله وأربابه ، وهل تجاهلوا أنهم في شهر الرحمة والغفران والبركة والإحسان ، أما يكفي في شحذ هِمَمهم وتحريك نفوسهم قوله صلى اللّه عليه وسلم كما في الحديث المتفق عليه من حديث أبي هريرة : (من قام رمضان إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدّم من ذنبه) ( ) ، ألسنا نحب غفران ذنوبنا ومحو سيّئاتنا ؟!! بلى واللّه ! .

وفي صحيح ابن خزيمة وابن حبّان بسند صحيح : جاء إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم رجل من قضاعة فقال : يا رسول اللّه أرأيتَ إن شهدتُ أن لا إله إلا اللّه وأنكَ رسول اللّه وصلّيتُ الصلوات الخمس وصُمت الشهر وقُمت رمضان وآتيتُ الزّكاة ؟ فقال النبي صلى اللّه عليه وسلم : (مَنْ ماتَ على هذا كان من الصدِّيقين والشهداء) ( ) .

وحقيقة أن هؤلاء المتخلّفين عن التراويح بلا عُذر شرعي وهم سامدون على لعب ولهو وقد حُرموا خيرها وشقوا بتركها ، فيالها من خسارة عظيمة وحسرةٍ فظيعة أن تنتهي الأيام المعدودات وقد صُرفت في اللهو واللعب وفضول المباحات والتخلف عن المكارم والصالحات وما يرفع الدرجات .

قال تعالى : [**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ**] [يونس: 58-57].

فائدتان

الأولى ـ ما يُقال بعد الوتر :

أخرج أصحاب السنن عن أبيّ بن كعب رضي اللّه عنه كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إذا سلّم في الوتر قال : «سبحان الملك القدّوس»( ). يطيل في آخرهنّ ، وعند النسائي( ) : (يرفع صوته بالثالثة) وهذا الحديث ثابت صحيح ، وزاد الدارقطني في سننه (ربُّ الملائكة والروح) ( ).

وعند أصحاب السنن أيضاً عن عليّ رضي اللّه عنه قال : إن النبي صلى اللّه عليه وسلم كان يقول في آخر وتره : (**اللهم إني أعوذ برضاكَ من سخطك، وبمعافاتك من عُقوبتك ، وأعوذ بك منك لا أُحصي ثناءً عليكَ ، أنتَ كما أثنَيْتَ على نَفسك**) ( ).

قال ابن القيم رحمه اللّه : «وهذا يحتمل قبل فراغه وبعده»( ).

الثانية : يُستحَب صلاة ركعتين بعد الانصراف من الوتر ، ذكر ذلك مسلم في صحيحه( ) ، وقد صح أنه كان يصلّيهما وهو جالس ، وفي المسند بسند رجاله ثقات عن أم سلمة رضي اللّه عنها قالت : «كان يصلي ـ أي النبي صلى اللّه عليه وسلم ـ بعد الوتر ركعتين خفيفتين وهو جالس»( ).

وثبت في المسند وصحيح ابن خزيمة بسند حسن أنه كان يقرأ فيهما الزلزلة والكافرون( ) ، وصح الأمر بالركعتين في صحيح ابن خزيمة عن ثوبان رضي اللّه عنه قال : كنا مع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في سفر فقال : (إن هذا السفر جهد وثِقَل ، فإذا أوتر أحدُكم فليركع ركعتين ، فإن استيقظ وإلا كانتا له) ( ).

وبهذا النص الصريح يندفع توهُّم خصوصية الركعتين بالنبي صلى اللّه عليه وسلم قال الإمام ابن خزيمة رحمه اللّه مترجماً لهذا الحديث : «باب ذكر الدليل على أن الصلاة بعد الوتر مباحة لجميع مَن يريد الصلاة بعده ، وأن الركعتين اللتين كان النبي صلى اللّه عليه وسلم يصليهما بعد الوتر لم يكونا خاصة للنبي صلى اللّه عليه وسلم دون أمّته ، إذ النبي صلى اللّه عليه وسلم قد أمرنا بالركعتين أمر ندب وفضيلة ، لا أمر إيجاب وفريضة» .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه اللّه تعالى : «**ورخَّص أحمد أن تُصلَّى هاتان الركعتان وهو جالس ، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم فمن فعَل ذلك لم يُنكر عليه ، لكن ليس بواجب بالاتفاق ، ولا يُذمّ من تركَها ، وأكثر الفقهاء ما سمعوا بهذا الحديث ، ولهذا يُنكرون هذه ، وأحمد وغيره سمعوا هذا وعرفوا صحته**»( ).

قال ابن القيم رَحمه اللّه تعالى : وقد أشكل هذا على كثير من الناس ، فظنّوه معارضاً لقوله صلى اللّه عليه وسلم : (اجعلوا آخر صلاتكم بالليل وت